منتدى الحوار

الحريـــة والإســـلام

جابر عصفور:

مرحبًا بكم في منتدى الحوار، وأنا سعيد لأعود إليكم من جديد، ويزيد من سعادتي اليوم أنني سأقدم مفكرًا إسلاميـــًا نفتخر به خصوصًا في هذه الأيام الصعبة التي أصبح فيها حتى من لا يفهم يطلق على نفسه صفة المفكر الإسلامي، وأعتقد كما تعلمنا من التراث أن هناك في التراث الإسلامي من يسمونهم أهل النقل ومن يسمونهم أهل العقل، وأهل النقل بالطبيعة وبحكم التكوين والتربية تقليديون إلى أبعد حد؛ يقدسون التقاليد ويؤمنون بالتوقف عند ظاهر النص، ولا يراعون التغير التاريخي وما يمكن أن يفرضه من إعادة تفسير وتأويل للنصوص، وفي مقابل هؤلاء أهل العقل الذين يؤمنون أن التاريخ يفرض نفسه ويميزون في الدين والنصوص الدينية بين ما يرتبط بعصر بعينه وما هو خاص بكل العصور؛ ومن هنا، كان أهل العقل باستمرار يمثلون التيار العقلاني المستنير والمتقدم في الحضارة الإسلامية، وبفضل هؤلاء ازدهرت العلوم وتأكدت معاني الشورى والديمقراطية وكانوا إلى جانب ذلك على المستوى السياسي معادين باستمرار للاستبداد وبعيدين عن الحاكم وعن سطوة السلطان التي كانت تغري غيرهم من أهل النقل. واليوم، أشعر بالسعادة لأنني أقدم واحدًا من أهل العقل من المفكرين المستنيرين الذين يقدسون العقل إلى أبعد حد، والذين يرون أن العقل هو سبيل الإنسان إلى المعرفة بوجه عام وإلى المعرفة الدينية بوجه خاص، ولم يكن من الغريب أن يكون الأستاذ جمال البنا عدوًّا لكثير جدًّا من أولئك الجامدين الذين لا يدركون التطور ولا يؤمنون بمعنى التاريخ وما يفرضه من متغيرات، وبعد أن أقدم لكم الأستاذ جمال البنا ويلقي عليكم محاضرته المهمة عن الحرية والإسلام، يسعدني أن أقدم بعده صديقي وأخي الدكتور قدري حفني في تعقيب، ثم بعد ذلك نفتح الباب للمناقشة.

جمال البنا:

اسمحوا لي أولاً أن أشكر القائمين على هذا المنتدى لأنهم شرفوني بالحديث في مكتبة الإسكندرية، كنت عندما أدخل هذه المكتبة، أتمثل مشهدًا صوره شاعرنا العظيم شوقي عندما زارت الملكة كليوباترا مكتبة الإسكندرية وقالت:

تحية لأمنـــــاء المكتبـــــة وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبة

ويرد الشيخ أمين أول المكتبة قائلاً:

سـلام السماوات في مجدها على ربة التاج ذات الجـلال
تمنيت رأسـين لا واحـدًا إذا مست الأرض هام الرجـال
أطأطئ رأسـًا لمجد النبوغ وأخفض رأسـًا لمجد الكمـال

نحن في المكتبة فنحن في التاريخ في حقيقة الحال، بل وفي مفصل من المفاصل الحاسمة فيه، وكان من الممكن أن تنتصر الإسكندرية على روما في معركة أكتيوم، وبهذا يتغير التاريخ، لكن، وإن كان قد فات الإسكندرية هذا المجد العسكري، فإنها احتفظت بالمجد الأدبي وظلت شعاعًا يشع ثقافة على مدار التاريخ.

أبدأ هذه المحاضرة باستغراب، لأننا نجد أن الأديان تقترن بالتعصب، في حين كان المفروض أن تقترن الأديان بالحرية، لأنه من الطبيعي أنه لا إيمان دون اقتناع ولا اقتناع دون تفكير ولا تفكير دون حرية، وكان المفروض أن تقترن الأديان بالحرية وليس بالتعصب، كان ذلك هو الفرض الأصولي النظري، لكن هناك عوامل تدخلت، فلم يعد الدين موضوعًا للفكر، ثم ظهرت المؤسسة الدينية التي تحتكر الدين والتي تثير التعصب، وهذا التعصب يصب في نفوسها وفي سلطانها، وأصبحت هناك هيئات تنشر التعصب وفي الوقت نفسه هي التي تمثل الدين، ومن أجل هذا اختلط الدين بالتعصب وليس بالحرية.

وحقيقة الحال أن كل الأديان مرت بهذا، لكن لأن الإسلام كان أكثرها شبابًا، ولأنه ظهر في البيئة الصحراوية الحرة التي لم تكن فيها حضارات سابقة ولا مواريث تضغط عليها ولا تابوهات ولا كنائس، فكان به شيء من حرية الصحراء الطليقة. إن الحرية ترتبط في الحضارة الأوروبية بالإنسان، تبدأ من الإنسان وتنشأ من الإنسان، أما في الإسلام، فإن الحرية تنبع من الحق، ولكن هناك فصيلة معينة من الحرية لا وصاية للحق عليها لأنها هي التي تؤدي لمعرفة الحق وهي حرية الفكر. إن حرية الفكر هي التي تجعلنا نميز بين الحق والباطل، بين الحقيقة والخرافة، ومن أجل هذا ولأنها هي التي تعرفنا الحق، فبالتالي لا يكون للحق وصاية عليها، وهذا هو سر أن القرآن عندما يتحدث عن الحرية يفتح الباب على مصراعيه، ويصل إلى درجة قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ : ٢٤)، لأنه لا يمكن قولبة الحقيقة ولا جعل أحد يستأثر بمعرفتها.

والمقصود بهذا القول هو أن نبين أن الحرية –وأعني بها حرية الفكر وحرية التعبير– مطلَقة في القرآن الكريم، لكن لابد أن أضيف أن القرآن شيء والفقهاء شيء آخر، لأن الفقهاء يمثلون فهمهم للإسلام في ظروف معينة وتحت مؤثرات معينة عديدة جدًّا يحتمل معها أن تختلف أفهامهم عن مفهوم

القرآن، بل وأن تصل في بعض الحالات إلى التناقض، وكان من هذه الحالات قضية الفكر. فبينما القرآن في آيات عديدة، وبينما الرسول عليه الصلاة والسلام في أعماله وتصرفاته يحقق الحرية، نجد أن الفقهاء يغلقون أبواب الحرية ويحددون عقوبة الموت للمرتد، ثم يحولون هذا الحكم إلى صيغة فقهية: "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة يُعدُّ مرتدًّا ويُستتاب أو يُقتل." وتحت صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة" من الممكن أن نضع مائة تهمة على الأقل، فمثلاً من الممكن اتهام من يعارض الحكم بأنه يعارض القرآن لأن القرآن ينص على طاعة الله والرسول وأولي الأمر، وعندما حكمت محكمة سودانية على محمود محمد طه بالإعدام كان من مبررات وحيثيات الحكم أنه جحد الحجاب؛ وهو من المعلوم بالدين بالضرورة، فإذا كان كل من يجحد الحجاب يُحكم عليه بالموت فإن هذا الحكم من الممكن أن يطال أي شخص منَّا جميعًا بلا استثناء.

إن كتاب الإسلام المقدس هو القرآن الكريم، هذا هو الكتاب الذي يُحسَب على الدين ويمثل جوهره، أما ما يقوله الفقهاء أو ما تضعه المؤسسة الدينية، فهذا شيء آخر لا يجوز أن يُحسب على الدين، لأن هذا كلامهم وكلامهم هذا ليس شرطًا أنه يمثل الدين، ونحن نسير في رحاب القرآن، وسوف نعالج حرية الفكر كما جاء بها، ومجمل ما جاء به يؤكد على أن الإيمان والكفر قضية شخصية لا دخل فيها ولا إكراه عليها:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ {٢٥٦ البقرة}

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ {١٠٨ يونس}

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ {١٥ الإسراء}

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ {٢٩ الكهف}

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {٩١-٩٣ النمل}

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ {٤٤ الروم}

وفي هذه الآيات، يبين القرآن أن الهدى والضلال والإسلام والكفر قضية شخصية لأنها مبنية على الضمير، ولا توجد قوة تملك التحكم في هذا الضمير، وكون هذا الضمير يؤمن بشيء لا يضر به أحدًا آخر فلا يجوز لأحد أن يتدخل فيها. والظاهرة الموجودة والمنتشرة التي نراها الآن والتي كُتب عنها الكثير ومازال سيُكتب عنها الكثير هو عندما تعتنق فتاة مسيحية الإسلام حتى تتزوج شابًّا مسلمًا، تثور أسرتها وتثور الكنيسة وتنقلب الدنيا، وكذلك عندما يتنصَّر شاب لأنه يريد السفر إلى أمريكا مثلاً أو لأي سبب آخر، تقوم الدنيا ولا تقعد ويطالب الفقهاء بتطبيق حد الردة، ما هذا الذي يحدث؟ ولماذا يحدث؟ إن هذه التحولات مسائل شخصية تعود إلى الشخص نفسه، هل نريد أن نملي على الناس ضمائر تخالف ضمائرهم الحقيقية؟ وما يضير أي دين في أن يتركه معتنق له؟ إن الأديان لا تشكو من قلة، ثم إن الأديان قيم والقيم لا تزيد ولا تنقص، كل هذه التصرفات بها نوع من الأنانية وهي تعكس التعصب للنفس وللذات.

ونجد أن القرآن الكريم ينتقل إلى فكرة أن الرسل ليسوا إلا مبشرين ومنذرين ومبلغين دون أية سلطة لإكراه أو إجبار، والرسل هم أصحاب الدعوة، ولا سلطة لهم ولا صلاحية إلا التبليغ، فلا هو مهيمن ولا مسيطر ولا جبار ولا حتى وكيل. فإذا كان القرآن يحدد صلاحيات الرسول وهو صاحب الدعوة ويقصرها على عملية التبليغ فحسب، ويقول له بعبارات صريحة إنه ليس له من الأمر شيء وإنه لن يهدي من أحب، إذن، كيف يعطي الناس العاديين أنفسهم صلاحية للحكم على الناس بالإيمان وبالكفر وبالاستئثار بتمثيل الدين بينما ليس هناك من يحق له أن يمثل الدين، ولننظر معًا ماذا يقول القرآن الكريم في الرسول:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {١٨٨ الأعراف}

بمعنى أن صلاحيات الرسول تأتي دائمًا بأدوات الحصر "إن أنت إلا ..." أو "إن أنا إلا ...".

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {٤١ يونس}

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنــزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ {١٢ هود}

وكما نرى، يعاتب القرآن الرسول في مواضع ويؤدبه في مواضع أخرى، وذلك لأنه في النهاية بشر، وهو نفسه يعترف قائلاً: "إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ".

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ {٤٠ الرعد}

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ {٩٤ الحجر}

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ {٨٢ النحل}

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ {٥٦-٥٨ الفرقان}

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ {٤٥ ق}

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ {٦ الشورى}

﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾ {٥-٧ عبس}

وهذه الآية من السورة التي نزلت تعاتب الرسول عندما ترك رجلاً أعمى فقيرًا لأنه كان يتحدث مع سادة قريش ويطمع في إيمانهم، وتصور أن إيمانهم أفضل للدعوة من إيمان هذا الفقير، فجاءته هذه الآيات الكريمات، ويقول القرآن أيضًا:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ {٢١-٢٢ الغاشية}

ونفهم من هذا أنه إذا كان الرسول وهو صاحب الدعوة ليست له سلطة على الآخرين، ولكن عليه البلاغ فحسب ثم يدعهم وشأنهم لأنه أدى ما عليه ولأن الله تعالى أعلم بنفسية الناس واستعدادهم للهداية. إن الهداية في الأساس من الله، ويؤكد ذلك الله تعالى في قوله:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ {٢٧٢ البقرة}

بمعنى أنه إذا كان الرسول يتصور أنه هو الذي يملك هدى الناس أو أن من واجبه هدايتهم بطريقة أو بأخرى، فإن هذا ليس صحيحًا، إن دوره ينحصر في البلاغ، أما هداية الناس فهي مسألة أخرى تخضع لعوامل عديدة ومختلفة، ويقول الله تعالى أيضًا:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ {٨٨ النساء}

إن رؤساء الدعوى المضادة للإسلام رفضوا الإيمان بحكم أوضاعهم، لأن إيمانهم يفقدهم الصفة المميِّزة لهم باعتبارهم يمثلون وجهة النظر المعارضة، فكيف يتم حملهم على الإيمان؟ هم لن يؤمنوا حتى لو عرفوا أن هذا هو الحق، يقول الله في محكَم آياته:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تــؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ {٩٩-١٠٠ يونس}

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْـــــدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ {٥٦ القصص}

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ {٨ فاطر}

إن الاختلاف في العقائد بين البشر مما أراده الله تعالى وما يفصل فيه يوم القيامة، ولا يمكن أن نتصور أن يأتي اليوم الذي يكون فيه كل العالم من المسلمين، لأن هذا يخالف طبائع الأشياء، والسنن التي وضعها الله تعالى والتي تقتضي وجوبًا التعدد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ {٦٢ البقرة}

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ {١١٣ البقرة}

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِـــــقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ {١٣٦-١٣٧ البقرة}

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {١٤٨ البقرة}

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ {٨٤ آل عمران}

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ {١١٨-١١٩ هود}

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ {٤٦ العنكبوت}

والآية الكريمة الأخيرة تذكرني بحادثة حدثت لعلها أول حوار في التاريخ بين الإسلام والمسيحية، عندما تصور نصارى نجران في اليمن أنهم يستطيعون أن يدخلوا مع المسلمين في "مباهلة"

وهي تقترب في معناها من المناظرة، فحضروا إلى النبي عليه الصلاة والسلام بثياب حريرية فاخرة، وعندما أعرض عنهم الرسول ذهبوا وعادوا ليقابلوه في ثياب عادية فأنزلهم في المسجد، وبدأوا يعدون العدة للمباهلة، وأقسموا بغليظ الأيمان بأنهم على حق وأي فئة سواهم على باطل، ثم فكروا وسألوا المسلمين: "ألستم تقولون إن المسيح روح الله وكلمة منه ألقاها إلى مريم"، فأجابهم المسلمون: "بلى"، فردوا قائلين "حسبنا هذا"، لأن المسلمين يرددون ما يكادون هم يقولونه. إذن، فالمسألة لا تتطلب مباهلة ولا تتطلب اختلافًا، وقد انصرفوا راضين والمسلمون راضون ولم تحدث بين الفريقين مبارزة ولا اكتملت المباهلة.

وأود ألقاء بعض الضوء على سورة الكافرون في القرآن الكريم، والتي يقول نصها:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(٤) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ {الكافرون}

إن البعض يجد حساسية من كلمة "الكافر"، إن معناها في القرآن الكريم يعني "غير مؤمن بدين الآخر وعقيدته"، أي أن المسلم كافر بالنسبة للمشركين والمشركين كافرون بالنسبة للمسلم، وكذلك يعتبر النصارى كافرين بالنسبة للإسلام لأنهم لا يدينون به وكذلك المسلمون كافرون بالنسبة لهم، ولا يمكن أن يظل القرآن يكرر "يا أيها النصارى"، يا أيها اليهود"، "يا أيها المجوس"، يا أيها البوذيون"، يا أيها الكونفوشيون" .... إلخ، بالطبع لا، لقد اختار الكلمة التي تشمل كل هؤلاء وغيرهم ممن لا يؤمنون بالإسلام دينًا وعقيدة ويرفضون الإيمان به، لقد قال لهم القرآن جميعًا إنهم لن يؤمنوا بالإسلام ولا المسلمون سيؤمنون بهم، إذن، يحتفظ كل من الطرفين بدينه، وفي الآية التي تقول ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، قنن الإسلام وأيـــدً التعددية الدينية، وأن تكون العلاقة قائمة على التعايش لأنها تقوم على الاعتراف بالآخر، وفي هذه الآية يقر الإسلام بأنه حتى الشرك يُعد دينًا، في حين لا يعترف الدستور المصري إلا بثلاثة أديان فقط ولا يعترف مثلاً بديانة مثل البهائية. نحن لا نطلب من الآخرين أن يؤمنوا بالإسلام، ولا يجب أن يطلب منا الآخرون أيضًا أن نؤمن بدينهم، فلنا ديننا ولهم دينهم، وسوف يفصل الله بين الجميع يوم القيامة.

أود أيضًا في هذا السياق الإشارة إلى مسألة حد الردة، والمؤكد أنه لا يوجد في الإسلام حد دنيوي كعقوبة للردة، إن أكبر سلاح ضد حرية الفكر أن تكون هناك عقوبة دنيوية لمن يغير دينه أو يرتد عنه، وقد ذكر القرآن الكريم الردة مرارًا ولم يرتب عليها عقوبة دنيوية:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ {١٠٨ البقرة}

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ {٢١٧ البقرة}

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ {٩٠ آل عمران}

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ {١٣٧ النساء}

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ {٥٤ المائدة}

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ {٧٤ التوبة}

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ {١٠٦ النحل}

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ {٢٥ محمد}

في هذه الحالات التي تحدث فيها عن الردة بهذه الصراحة مرارًا وتكرارًا لم يرتب عليها أية عقوبة دنيوية، وإنما أرجأ العقوبة في الآخرة وأنه تعالى الذي سيعاقب بها وحده. وبالنسبة للرسول وللصحابة فقد تحدث أحد الفقهاء المعاصرين، وهو الشيخ محمد زكي إبراهيم رئيس العشيرة المحمدية في رسالة بعنوان "السلفية المعاصرة إلى أين" ، فقال:

- ارتد في حياته بعض المسلمين أفراداً أو جماعات، وبعضهم كان ارتداده مرات لا مرة واحدة فما قتل أحدًا منهم.
- ارتد رجل آخر عن الإسلام بعد أن كان من كُتـــَّاب الوحي للرسول، و لم يتورع مع ارتداده أن يقول الكلمة المنكرة التي رواها البخاري وغيره "ما يدري محمد إلا ما كتبت له". وعلى الرغم من ذلك كله تركه رسول الحرية حرًّا طليقًا وقبل فيه الشفاعة حتى مات على فراشه (انظر هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري) :
- وارتد اثنا عشر مسلمًا عن الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرجوا من المدينة إلى مكة ومنهم الحارث بن سويد الأنصاري، فما أهدر الرسول دم أحد منهم، ولا حكم

بقتل مرتد منهم واكتفى القرآن بقولـــه عنهم ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلامِ دينـــًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ * وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الخاسِرين﴾

- وارتد عبيد الله بن جحش بعد إسلامه وهجرته إلى الحبشة واعتنق النصرانية هناك فما أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، ولا طلب من النجاشي تسليمه إليه ولا أوعز إلى أحد بقتله.
- واعتنق النصرانية كذلك ولدان شابان فشكاهما أبوهما إلى الرسول قائلاً "يا رسول الله أدع ولديَّ يدخلان النار؟"، فلم يقل لـــه الرسول مثلاً اقتلهما أو دعني أقتلهما وإنما أسمعه الآية القرآنية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ .

هذه الحالات المتعددة المترادفة تثبت أن الرسول لم يعرف حدًّا للردة، و لم يأمر به، و لم يطبقه.

وقد فندنا فى رسالة موجزة عن حرية الفكر والاعتقاد في الإسلام دعوى وجود أحاديث تقيد الفكر وتأمر بقتل "المرتد" ولا يتسع لها المجال هنا، ولكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى أن الحديث الذي يعتمدون عليه في هذا وهو "من بدل دينه فاقتلوه" هو حديث آحاد عن عكرمة، وأحاديث الآحاد لا يعمل بها في العقائد، وعكرمة راوي هذا الحديث مجرح، و لم يدرج الإمام مسلم في صحيحه حديثًا له رغم أنها بالمئات، فإذا كان الإمام مسلم قد رفضه، فهل يعاب علينا أن نرفضه والأمر بعد أمر دماء يتطلب الحذر والدقة والتثبت؟

وقد توجد ثلاثة أحاديث تجعل من مبررات القتل الردة عن الإسلام، ولكن هذه الأحاديث قرنت ما بين الردة والمشاركة في حرب المسلمين والانحياز إلى صفوف أعدائهم، وبهذا التأويل قال ابن تيمية نفسه .

فيتضح من هذا، ومن فعل الرسول الذي استشهدنا به أن ليس في السُنة ما يقرر عقوبة على الردة، فضلاً عن أن الفقهاء لم يقنعوا بذلك، بل أبدعوا صيغة "من جحد معلومًا من الدين بالضرورة" وتحت هذه الصيغة المرنة يمكن أن يوجد مائة فكر أو تصرف يدخله الفقهاء فيها، وهو ما يوضح أن الفقهاء أرادوا حماية العقيدة من أي مساس بها بفكرة أن المساس بها يوهنها، وفاتهم أن الجهالة والكسل العقلي أو الصدأ الذهني أسوأ من كل شيء، وأن إبقاء العقائد دون معالجة يؤدي لأن تأسن أو تتوثن ، فهو فكر مرجوح، سوءاته أكثر من حسناته – إذا وجدت.

وكما قلنا ونردد أن الفقهاء شيء والقرآن والرسول شيء آخر، لأن الفقهاء يعبرون ليس عن إرادتهم وأفهامهم فحسب ولكن أيضًا عن عهدهم وعن النظام السياسي الذي يحكمهم، ومنظومة المعرفة الإسلامية كُتبت في المرحلة التي بلغت الدولة الإسلامية فيها مرحلة الإمبراطورية، وقد عاصر أحمد بن حنبل المأمون الذي بلغت الدولة الإسلامية أوجها تحت ولايته، والسؤال هو: هل كان يمكن للفقهاء أن يصدروا أحكامًا تتنافى أو تتعارض مع مقتضيات ومصلحة الدولة الإمبراطورية؟ بالطبع لا،

لأن الإمبراطورية الإسلامية كانت مثلها مثل كل الإمبراطوريات في التاريخ: حقيقة واقعة لها ضرورات تفرضها.

ننتقل إلى فكرة أخرى وهي حرية التعبير، وهي تفعيل لحرية الفكر، بمعنى أن يكون الإنسان مؤمنًا بشيء ولكن لكي يبرزه إلى الوجود بالكتابة عنه أو الدعوة عليه أو تشكيل جمعية للدفاع عنه، فإن ذلك يندرج تحت حرية التعبير، وقد دخلنا في مساجلة مع أحد كبار المفكرين الإسلاميين حيث ذكر لي أنه يؤمن بأن حرية الفكر في الإسلام مطلقة، ولكن حرية التعبير تخضع للدساتير، وكان المتحدث رجلاً قانونيًّا والعقلية القانونية مسيطرة عليه، فقلت له إنه إذا كانت حرية التعبير تخضع للدساتير لما كان هناك دساتير أصلاً لأن حرية التعبير هي التي صنعت الدساتير والديمقراطية، وهي التي جعلت الملوك الذين كانوا يحكمون بإرادة إلهية يخضعون لإرادة الشعب ويلتزمون بدستور، لكن العقلية القانونية شيء وعقلية المُشرِّع شيء آخر.

وقد وضع الإسلام مبادئ أقمنا عليها حرية التعبير، وأكبر مبدأ أعلنه الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مسألة تجعل كل مواطن يعلن عن رأيه فيما لا يرضى عنه، وهي صورة من صور التكافل الاجتماعي باعتبار أن المجتمع جزء يتكون أفراده من أعضاء مترابطين، لا يجب أن يدعي أحد أنه لا شأن له بما يحدث في المجتمع، ولا يجب أن تُرفَض دعواه لأنه ليس له مصلحة، لأن المسألة ليست مصلحة شخصية ولكن مصلحة قومية ومسألة مصير. وعلى هذا الأساس، قلنا إن الإسلام يؤمن تمامًا بحرية الصحافة، وهي مسألة مقدسة لأنها أكبر حرية وهي تشهد بعبقرية من يصدرها، فأي شخص يمكنه أن يصدر جريدة أو مجلة ويشاركه بالكتابة فيها أي عدد من الأشخاص، وهو شيء لا يستطيع أن يفعله مثلاً عضو البرلمان لأن اللائحة قد تمنع البعض والوقت محدود وقد يتكلم أحدهم ويضيق بإطالته رئيس الجلسة الذي يتلقى عشرات الطلبات للحديث ويضطر من فرطها لغلق باب المناقشة، وهذا بخلاف الكتابة والتعبير بحرية كاملة دون قيود ولا رخصة ولا مصادرة، وإذا أقام الصحفيون نقابة، فإنه ليس من حق هذه النقابة أن تضع قيودًا على من يعمل في هذه الصحافة وإلا ستتحول من رسالة إلى حرفة.

وفي إطار هذه الأفكار، أود الإشارة إلى حرية تنظيم النقابات، وهذه مسألة مهمة جدًّا، وأنا شخصيًّا من المعنيين بهذا الموضوع، وكانت حرفتي أنني خبير في هذا الموضوع، وقد ظللت ألقي محاضرات في معهد الدراسات النقابية بالدقي منذ عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٩٣، ثلاثين عامًا كاملة، كل وزراء العمل تدربوا في هذا العمل ومن ضمنهم الوزيرة الحالية السيدة عائشة عبد الهادي، لم يكن الأمر يقتصر على مصر بل امتد إلى الدول العربية لأن هذا النشاط بدأ في العهد الناصري حينما كانت مصر هي زعيمة القومية العربية، ومعظم قيادات النقابات العمالية في الدول العربية درسوا في

هذا المعهد، وأعتقد أن الحركة النقابية هي أكبر حركة نهضت بمستوى معيشة الشعب العامل، وأنها أبدعت فنونًا وأساليب للعمل وللضغط، وهي التي ابتدعت الإضراب والاتفاقيات الجماعية وغيرها من الأساليب الحضارية التي تمكِّنهم من الوقوف أمام الاستغلال الرأسمالي وهو متأصل في الرأسمالية، فلا رأسمالية دون استغلال، وربما قلَّ هذا الاستغلال أو كثر، ولو لم تكن هناك حركة نقابية قوية تكبح جماحهم لأصبح الاستغلال من طبيعة الحياة في حقيقة الحال. إن الثورة الصناعية في أولها، كانت تجعل العمال يشتغلون ساعات عمل طويلة ويعملون في المناجم والممرات الضيقة في ظروف سيئة دون حماية، ولا يمكن تصور مدى الوحشية والاستغلال، ولولا الحركة النقابية، لما استطاع أي عامل الحفاظ على حقوقه.

أما في مصر، فإن الحركة النقابية معقَّمة وعقيمة منذ عام ١٩٥٢، وقد أضاع هذا على الأمة مجموعة كبيرة جدًّا من البشر كان من الممكن أن تكون قوة فاعلة ومؤثرة في حالة انطلاقها، ولكنها الآن قوة سلبية على الرغم من أن العمال يمثلون ٥٠% من أعضاء مجلس الشعب، إلا أننا لم نسمع منذ عام ١٩٥٢ وحتى الآن فردًا واحدًا من هؤلاء تحدث بأية كلمة.

إن الفكرة الرئيسية في تشكيل النقابات هي أن كل عدد من العمال يرغب في تكوين نقابة، فإن له هذا الحق دون حاجة إلى تسجيل أو تدخل من الإدارة والحكومة. كما توجد اتفاقيات الحرية النقابية التي وضعتها منظمة العمل الدولية وصدقت عليها مصر، ولكن الجهالة في مصر فاشية في مسألة النقابات، ولا يمكن أن نجد في أية دولة في العالم نقابة واحدة فقط تمثل مجموعات عديدة من العمال، لأن النقابة الوحيدة هذه ستتحول إلى نوع من الاتحاد، وإذا كان في مصر ثلاث وعشرون نقابة عامة، فإن هناك نقابة فيها مليون مشترك ونقابة أخرى فيها خمسمائة ألف، وكل نقابة تمثل عمال صناعة معينة، والنقابة العامة هي التي تستطيع أن تطلب من الإدارات خصم الاشتراك من العمال، والذي يُحوَّل لحساب النقابة العامة، وإذا لم تكن هناك غير نقابة واحدة تملك السيطرة بهذه الصورة، فما الذي يجعلها تعمل لخدمة العمال؟ لا يستطيع أن يخرج العمال منها، إلى أين سيذهبون؟ وحتى لو خرجوا، فإن اشتراكاتهم ستُخصم من مرتباتهم في جميع الأحوال، وهذه صورة غريبة جدًّا من القصور، ولا مجال هنا للحديث عن الوحدة النقابية لأن هذا احتكار نقابي، وكل أدبيات منظمة العمل الدولية تطلق على الدول ذات النقابة الواحدة "دول الاحتكار النقابي"، وهذا ما كان موجودًا في الاتحاد السوفيتي، ونقلته مصر في مرحلة التحول الاشتراكي. وما أقوله عن الحركة النقابية ينطبق على الجمعيات الأهلية ومنظمات العمل المدني.

وقد يقول قائل إنني لا أدعو إلى ما دعا إليه الإسلام على وجه التحديد، وإنما أكرر ما دعت إليه الديمقراطية الحديثة، وإلا فكيف يدعو الإسلام إلى حرية الصحافة قبل أن تظهر المطبعة والصحف، وأن يدعو الإسلام إلى حرية التنظيم النقابي قبل أن تظهر الطبقة العاملة، في الحقيقة، نحن

نقيم على أسس وأكبرها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهل قام إلا لتحقيق هذا الأمر؟ وهل قيام الأحزاب ومطالبتها بالمشاركة في القرار السياسي إلا تطبيق للشورى التي أمر بها القرآن؟ وهل مشاركتها التي تحسم الطغيان إلا محاولة للحيلولة دون الظلم؟ وهل دعوة النقابات إلى العدل والإنصاف إلا تحقيق إلى دعوة القرآن إلى العدل؟ هل هذه الصور للتكافل الاجتماعي والاقتصادي إلا صورة من صور المجتمع المسلم الذي شبهه الرسول بالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، كما شبههم بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

ومن أهم المبادئ التي وضعها الإسلام كان مبدأ البراءة الأصلية، وهو الذي ينص على أن كل شيء لا يحرمه نص صريح من القرآن لا يقبل تأويلاً يعد مباحًا، وهذا معناه أن المحرمات هنا تم حصرها في صورة صريحة لا تقبل تأويلاً، لأنه إذا قبلت تأويلاً فقد جاء الاحتمال الذي يبطل الاستدلال. ومن هنا، كل ما يفعل الإنسان بفطرته السليمة يعد حلالاً إلا ما استثناه القرآن الكريم على وجه التحديد، فالأصل أن كل شيء سليم إلا إذا كان ضارًّا أو كان القرآن قد حرمه.

جابر عصفور:

نشكر الأستاذ المفكر جمال البنا على محاضرته الوافية، وقبل أن ننتقل إلى الدكتور قدري حفني، اسمحوا لي أن أذكركم بأن المحاضرة كلها مبنية على مقدمتين، المقدمة الأولى أن هناك فارقًا أساسيًّا بين الدين وبين تفسير الدين وفهمه، إن الدين هو النصوص المقدسة، أما تفسيره وفهمه فهما مسألتان تتصلان بالبشر، وينبغي أن نميز بين الاثنين تمييزًا حاسمًا. والمقدمة الثانية أن المؤسسة الدينية بحكم طبيعتها تفرض تفسيرًا بعينه وتنحاز إليه وتعادي من يخالفه، ومن هنا تقترن المؤسسة الدينية بالتعصب كما قال الأستاذ جمال البنا. وبعد ذلك انتقل إلى مجموعة من المبادئ التي رأى أنها أصل الحرية في الإسلام، أولها أن الإيمان والكفر قضية شخصية لا تدخُّل فيها ولا إكراه عليها، وثانيها أن الرسل مبشرون دون أدنى سلطة، ثالثًا أن الهداية من الله، ورابعًا أن الاختلاف في العقائد أمر طبيعي يقبله الإسلام، وخامسًا أنه لا يوجد حد دنيوي للردة. ثم رأى الأستاذ جمال البنا أن حرية التعبير هي الممارسة العملية لحرية التفكير، وقاده هذا إلى الحديث عن حرية الأحزاب والصحافة والنقابات والجمعيات. وليتفضل الدكتور قدري حفني للتعقيب على المتحدث.

قدري حفني:

أقرأ للأستاذ جمال البنا منذ سنوات الشباب، أي منذ ما يقرب من نصف القرن، وأعرفه منذ سنوات طوال، وطيلة هذه السنوات كنت أراه دومًا مثيرًا للجدل وللنقاش، طارحًا لأمور يُختلف حولها. وكما قدمه الدكتور جابر عصفور، إنه من أهل العقل، وحين أتأمل رؤيتي له أكاد أرى أن

التقسيم إلى أهل النقل وأهل العقل أمر يشمل العقائد جميعًا، ليس الأديان فقط ولكن كافة الأطر الفكرية، من الماركسية إلى الإسلام إلى المسيحية إلى اليهودية، هناك عبدة النصوص وهناك من يُعملون العقل. ولكن، أثاريني سؤال منذ سنوات طويلة، تُرى هل أولئك الذين يتمسكون بالنقل ويعبدون النصوص أقل حبـــًّا لعقائدهم أو أقل حرصًا على جماعاتهم؟ وكانت إجابتي: لا، هم يحبون جماعاتهم ويتمسكون بعقائدهم ويحبونها ويحبون لها الانتصار، أين المشكلة إذن؟ عدت إلى تراث علم النفس الذي أزعم أنني متخصص فيه، وأيضًا إلى مسار التاريخ، فوجدت أن حب الجماعة أو حب العقيدة أو محبي العقيدة ينقسمون فريقين: فريق يرى أن عليه المحافظة على جماعة أبناء العقيدة أو أبناء الدولة، فهو يخاف أن ينفرط عقد الجماعة، ولذلك، يسرف في فرض العقوبات على من يخرج، ويضيـــِّق من باب الاجتهاد مخافة أن يتسلل من هذا الباب من يفسدون العقيدة، وفي المقابل هناك نوع آخر من المحبين هم أهل العقل ومنهم الأستاذ جمال البنا، يرون أن الحفاظ الحقيقي على حياة هذه الجماعة التي نحبها وعلى هذه العقيدة التي نؤمن بها أن نفتح الباب للاجتهاد، وحكمة التاريخ تقول لنا إن فتح الباب للاجتهاد يؤدي إلى أمرين مهمين، الأمر الأول هو تثبيت العقيدة، والأمر الثاني هو أنه إذا ما أغلقنا الباب وهددنا من يتركنا وقلنا إنه على الجميع أن يلتزموا بالالتزام الذي نراه، فإننا نفتح الباب لمزيد من المنافقين، نتمسك بمن لا يريدون عقيدتنا ونطلب منهم أن يكونوا معنا وهم علينا؛ ولذلك، فإنني طيلة معرفتي بالأستاذ جمال البنا، أراه من أهم المدافعين ومن أقوى المدافعين عن الدين والمتمسكين بالإسلام تمسكًا شديدًا حقيقيًّا لا تشوبه شائبة، ولذلك يحدث الخلاف ويُثار الجدل.

موضوعنا كان عن الحرية والحرية هي الوجه الآخر للمسئولية والمحاسبة، وهي المعيار الحقيقي للمقارنة بين الأبنية الفكرية العقائدية، ولا أريد أن أطيل في التعقيب، فالحديث عن الصديق العزيز الأستاذ جمال البنا حديث ذو شجون بالنسبة لي، ولذلك فإنني أفسح المجال للحاضرين للتعليق والأسئلة.

سعيد حسن زلط:

أرجو عرض المؤهلات العلمية للأستاذ جمال البنا، وأرجو أن يوضح ما إذا كانت فتاواه اجتهادات فردية. وأتساءل: متى يصدر مشروعا وزارة العدل والأزهر الشريف حول القصاص طبقًا للشريعة الإسلامية؟ وكان الدكتور جابر عصفور وآخرون قد طالبوا بتفسير عصري للقرآن الكريم يشترك فيه الأطباء والمهندسون وغيرهم. متى تعود هيئة كبار علماء الأزهر الشريف بالانتخاب وليس بالتعيين؟ وهل يكفي مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ووزارة الأوقاف؟ ما رأي الأستاذ

جمال البنا في جعل الحج في الإسلام مرة واحدة في العمر بالنسبة لظروفنا الاقتصادية المتواضعة والتكاليف المرتفعة للحج؟

أعلن الأستاذ جمال البنا أن التدخين لا يبطل الصيام في شهر رمضان، وهذه فتوى للدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية بأن التدخين لا يبطل الإحرام، وقد طالبنا الله عز وجل ألا نقتل أنفسنا، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام إنه لا ضرر ولا ضرار، التدخين إغضاب للرحمن إرضاء للشيطان إهلاك للأبدان إضعاف للإيمان مثلما قال مفتي الجمهورية السابق الدكتور نصر فريد واصل.

ماذا وراء دعوة المطالِبين بتنقية السُنَّة المحمدية؟ ما هذا الهجوم الرديء على فضيلة شيخ الأزهر الأسبق الدكتور محمد الفحام؟ وأخيرًا، باسم من يتحدث رئيس لجنة حوار الأديان الدكتور علي السمان رئيس لجنة حوار الأديان بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف؟ لقد وصف جهاد شعب فلسطين بأنه انتحار لقتل الجيران الأبرياء في إسرائيل !

مصطفى راشد (دكتور وصحفي وعضو اتحاد الكُتَّاب):

لماذا يا تُرى يفوق التعصب في الإسلام التعصب في باقي الأديان مما جعل مئات الأديان في العالم تقف ضد الإسلام والمسلمين، فما العلاج والحل؟ أيضًا، امتلأت بلادنا بمن يُطلَق عليهم لقب عالم إسلامي، لمجرد أنه يعمل بالدعوة مستندًا بالنقل في حين أنه لم يقدم جديدًا أو ابتكارًا مفيدًا للبشرية، فهل هذا يُعد عالمًا من وجهة نظر الأستاذ جمال البنا.

شريف الطوبجي:

هل طاعة أولي الأمر فرض عين على المسلم؟

محمد السيد إبراهيم (دكتور):

أين أهل العقل في الإعلام المصري والمسيطِر عليه أهل النقل؟

جمال علي أحمد يوسف:

سبق في حديث للأستاذ جمال البنا للإذاعة والتليفزيون أن التدخين في شهر رمضان لا يفطر الصائم فما التعليق على ذلك؟

عادل حلمي:

كيف يمكن تقنين فتاوى الفقهاء بما لا يسمح لهم بإحداث البلبلة بين الناس بسبب كثرة الفتاوى وتضاربها؟

متحدث لم يذكر اسمه:

ما موقف الأستاذ جمال البنا من الحجاب؟ وهل تعتقد أنه فرض أم وجهة في التفسير قابلة للجدل؟

محمد عبد الرحمن (طبيب):

نود لو يحدثنا الأستاذ جمال البنا عن آلية الدعوة في عصر الانفجار المعرفي والسماوات المفتوحة.

خميس عبد الله:

أود أن أسأل عن موضوع فتوى إرضاع الكبير.

إيهاب العمري (إدارة الإعلام بمكتبة الإسكندرية):

ما رأي الأستاذ جمال البنا في حكم سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قضية الردة؟

متحدث لم يذكر اسمه:

ماذا يقول الأستاذ جمال البنا في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا يُحل دم امرئ إلا بثلاث ..." إلى آخر الحديث الذي ذكر فيه تغيير الدين؟

عزة السيد محمد:

ما دور المجتمع في مسألة الحرية الدينية الشخصية؟ وهل يمكن أن يكون للأسرة الواحدة أكثر من ديانة لأن الأسرة هي نواة المجتمع الإسلامي؟

متحدث لم يذكر اسمه:

كيف يمكن فك الاشتباك بين الحرية والتعصب، بمعنى حرية الإنسان من ناحية وتعصب المؤسسات الاجتماعية من ناحية أخرى؟

أحمد سليم (مدير مدرسة):

هل يقع تحت بند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المشاركة الفعالة للمواطن في إعلان رأيه المعارِض لسلبيات النظام ومحاربة الفساد؟

عادل إبراهيم:

إلى أين يأخذنا الصراع بين التيار الديني والتيار الديمقراطي خاصة أن الدول تشدد على شعوبها بحجة الخوف من وصول المتطرفين إلى الحكم والاستيلاء عليه؟

متحدث لم يذكر اسمه:

في مقال شهير للأستاذ جمال البنا في جريدة الأهرام منذ فترة، دعا إلى التدخين في شهر رمضان للصائم، أرجو التوضيح؟ كما أود طرح سؤال شخصي: هل الأستاذ جمال البنا من المدخنين أم لا؟

جمال البنا:

أنا لا أدخن على الإطلاق.

منى رجب السيد (طالبة):

إن حد الردة وهو القتل وإن لم يجئ به الإسلام فهو لا يمنع حرية العقيدة، وهو أيضًا لحماية بعض المسلمين من سوء التفكير والتأرجح في الهوى، وهو حماية لهم من أنفسهم في بعض الأحوال وليس مجرد حجر على حرية فكرهم.

فايزة محفوظ:

كيف تفسر ظاهرة الدعاة الإسلاميين وظاهرة الفتاوى وتحريم كل شيء بفكرهم ومن منظورهم؟ ومن أعطاهم هذا الحق لجعلهم وسطاء بين الناس وبين الله؟ وما رأي الأستاذ جمال البنا في ظاهرة الحسبة أو الجاسوسية للمصلحة الشخصية؟

علي محمد عبد المنعم (دكتور استشاري وثقافي وشاعر وكاتب معتمد بالتليفزيون):

عملت فترة من حياتي استشاريـــًا في قطاع الأعمال لعدد من رجال الأعمال، وكان من نتيجة عملي باختصار أن المناخ يسمح بتحقيق أقصى ربحية لرجال الأعمال بغض النظر عن الاستغلال، والسؤال هو: إذا كان الشعب يرضى بالاستغلال، فلماذا نلوم رجال الأعمال على تحقيق أقصى ربح؟

متحدث لم يذكر اسمه:

أود أن أعود إلى قضية الحجاب، هل النص القرآني في آياته واضح ومحدد ولا يحتمل أي تفسير في أنه فرض تُعتبر من تركته آثمة أو عاصية كما يقول جميع الدعاة الآن؟

أحمد حسن (صحفي):

ما الدليل على أن الإسلام نادى بحرية الصحافة؟ اذكر نصًّا قرآنيًّا أو حديثًا صحيحًا.

طارق علي شلبي (طالب):

هل يرى الأستاذ جمال البنا أن ما حدث في الدنمارك من الإساءة إلى الرسول هو حرية للصحافة أو حرية للتعبير؟

متحدث لم يذكر اسمه:

ما دور علماء الأزهر الشريف والتفاسير العديدة على مدار التاريخ الإسلامي والتي تتعارض مع أقوال الأستاذ جمال البنا؟ ولكن للأسف فقد أصبح العلماء الحاليون علماء قطاع عام.

أحمد حسن (صحفي):

لم نعرف أحدًا أيام الرسول عليه الصلاة والسلام قد ارتد، هل يمكن ذكر حالات هذه الردة؟

السيد سليمان السيد (مهندس مدني):

إن المذاهب الفقهية السنية المعروفة استمرت على الرغم من كثرة المذاهب، وأحد المذاهب والذي كان يُعد المذهب الخامس كان يُدعى المذهب الظاهري، بدأ عند أبي داود الظاهري في الشرق ثم انتقل في القرن الخامس للغرب في الأندلس ثم اختفى بعد ذلك، ثم انتقل إلى الغرب في صورة البروتستانتية. وقد رفض الأستاذ جمال البنا علوم القرآن واعتبر أن النص القرآني يفسر نفسه، كما جرد البخاري ومسلم من بعض الأحاديث التي لا نعرف مدى صحتها، وقد أدركت خطورة هذا الكلام عندما وقعت في يدي بعض الكتب الأمريكية، والحداثة نوعان: حداثة أوروبية وحداثة أمريكية، والمجتمع الأمريكي مجتمع نشأ على الدين والمجتمع الأوروبي نشأ على القطيعة مع الدين، والأمريكان الأنجلو ساكسونيون البروتستانتيون متدينون جدًّا. وأي كتاب في التاريخ يتحدث عن أن المجتمع الأمريكي مجتمع ثيوقراطي، ونبعت علمانية أمريكا من هذه الثيوقراطية لأنهم اتبعوا الأسلوب الخطير الذي يتحدث عنه الأستاذ جمال البنا في إعادة تفسير النص الظاهري، بمعنى أن كل شخص يفكر في النص مثلما يريد، فأصبحت البروتستانتية التي نشأت في الأساس كتيار اعتراضي ونوع من التجديد إلى مئات الكنائس، هذا هو ما تم في العلاقة بين الدين والسياسة في المجتمع الأمريكي، فلا داعي لأن نتحدث عما يمكن أن يحدث معنا، وعلينا أن نقتدي بتجارب الآخرين، وأي حديث بعد ذلك عن العلاقة بين الدين والسياسة تتم دراسته من واقع الكتب الأمريكية. إن الحديث براق لكن التجربة خطيرة في تطبيقها وتتسبب في معاناة المجتمع الأمريكي، ونتيجة لهذه التجربة تولدت عشرات الصراعات التي لا يتحكم فيها سوى القضاء الأمريكي القوي، إن هذا التفسير سوف يُخرج مئات التيارات الدينية التي لن يستطيع أحد التحكم فيها لأن القضاء في منطقتنا العربية ضعيف.

سامي منسي:

لا يجوز الفصل بين أهل النقل وأهل العقل لأن إعمال النصوص يكون أساسيًّا وضروريًّا بإعمال العقل، ولا يمكن لأهل العقل الاستغناء عن النصوص، والدليل على ذلك أن الأستاذ جمال البنا ألقى الكثير من النصوص.

سهيلة منسي أحمد سامي (مدير مبيعات مصر للطيران سابقًا):

إن تفسير سورة الكافرون لا يدل على أن الله سبحانه وتعالى يعترف بأديان المشركين كالدين الإسلامي، وإلا فما معنى قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللهَ حقَّ تقاتِه ولا تموتن إلا وأنتم مُسلمون﴾، ويقول تعالى أيضًا ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منهُ وهو في الآخرةِ من الخاسرين﴾.

جمال البنا:

هناك قضايا متعددة تناولتها الأسئلة مثل الردة والفتاوى والنقل والعقل، كما توجد نقاط أخرى تفصيلية مثل الحجاب والتدخين في رمضان، وسوف نتعرض لذلك كله.

إن عمادنا هو القرآن الكريم لفهم الإسلام، والقرآن واضح، يقول الله تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾، إن قراءته ليست مشكلة، إن المشكلة هي في وجود ما يسمى بتفسير القرآن، وهو يدخل فيما ذكرناه، إن القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام شيء، وكل الذين تصدوا لفهم هذا من فقهاء أو مفسرين أو محدثين شيء آخر، وعندما يأتي أحد المفسرين ويقول إنه توجد آية في القرآن الكريم اسمها آية السيف نسخت ١١٥ آية من الصفح والسماح، أرد عليه قائلاً بأن هذا كلام فارغ لا يمكن أن أقبله، لكن معظم الفقهاء والمفسرين ليس لديهم مانع من الموافقة عليه. إن آفة الفهم القرآني هي آراء المفسرين أو ما يسمونه علوم القرآن، وقيل إنها خمسون علمًا ما بين الناسخ والمنسوخ وأسباب النـــزول وتعيين المبهمات وغيرها، وكلها تفانين من أفراد لا نطعن في إيمانهم ولا في رغبتهم ولا في ذكائهم لكنهم في النهاية أبناء عصرهم، وليسوا ملائكة وليسوا معصومين، ثم إن وسيلة الثقافة كانت محدودة في الكتاب المنسوخ، وكان المحدث يسافر من المدينة إلى الفسطاط بحثًا عن حديث واحد، لقد تحكمت الكثير من العوامل في هؤلاء العلماء والأئمة بحيث إنه ليس شرطًا أن يكون كلامهم صحيحًا دائمًا، كما أنه ليس شرطًا أن ما يعد صالحًا من ألف عام يُعد صالحًا اليوم، إن الفهم يتغير.

ونحن لدينا النص القرآني، لابد ألا نحاول تطويعه ولا أن نتعسف في شرحه، علينا فهمه بظاهر لفظه إلا ما يتعلق فيه بذات الله تعالى أو اليوم الآخر، لأن القرآن لا يمكن أن يتحدث عن الله بلغتنا ولا بتصوراتنا، فكان من الضروري اللجوء إلى الرمز والمجاز وغيرهما حتى يعطينا فكرة عن عالم الله تعالى وطبيعته، وكان هذا صعبًا بلغتنا لأن لغتنا مقصورة على معارفنا، ولأن أي أمر يتعلق بالله تعالى فإن طبيعته أكبر مما يمكن أن يصل إليه العقل البشري، لأنه لو وصل إليه لشاركه في الربوبية. من هذه الناحية فحسب يُلجأ في القرآن إلى التأويل وإلى الرمز وإلى الفهم العام، ونحن نرى القرآن

الكريم يستخدم تعبيرات مثل "يد الله فوق أيديهم" و"على العرش استوى"، وهي كلمات معبرة تثير الكثير من التساؤلات والتفسيرات حول طبيعة الذات الإلهية، أما ما عدا هذا فإنه يؤخذ بالظاهر، وكل التفاسير محشوة بإسرائيليات لا حد لها، صفحات كاملة منقولة من العهد القديم، وأحاديث ضعيفة وأشعار منتحلة واجتهادات لا أصل لها، فمن أين أتى المحدثون بكل هذه التفاسير، إن القرآن صغير في حجمه في حين يبلغ تفسير أجزائه ثلاثين جزءًا، إن الرسول نفسه لم يفسر أكثر من ثلاثين آية. إن القرآن يُفهم بالانطباع لأن له طبيعة فنية تميزه وله نظم موسيقي خاص، والرسول عليه الصلاة والسلام عندما كان يريد أن يدفع الناس إلى الإيمان كان يقرأ عليهم القرآن الكريم، بعضهم كان يؤمن فورًا وبعضهم كان يتزلزل الشرك في نفسه، وعندما أرسل المشركون إلى النبي رسولاً يفاوضه في دعوته قرأ النبي عليه آيات من القرآن الكريم، فهزته الآيات وعاد إلى قومه، وما إن رآه أبو جهل حتى صاح: "أقسم لقد عاد إليكم بوجه غير الذي ذهب به"، وقد حدث ذلك للرجل نتيجة للانطباع، لأن القرآن به قوة ذاتية وهو معجزة الإسلام، ومحاولة تفسير هذه الصياغة المُحكمة يكون نوعًا من التمييع ويمثل إضافة ما هو غير صحيح وغير ثابت إلى شيء صحيح وثابت، ولأجل ذلك نحن نرفض تفسيرات القرآن كلها، على العكس بل إننا نجد أن هذه التفسيرات من أكبر أسباب تأخر المسلمين، إن اختلاف الرأي مفتوح ونحن في محاضرة عن الحرية تجعل لنا كل الحق في الجهر بما نؤمن به ولدينا الحق في الدفاع عنه، كما أننا نبين الأسس التي نقيم عليها هذا الأمر.

الأمر الآخر عن الردة، لقد تلوت عليكم ما قاله القرآن الكريم في هذا الصدد، وذكرت لكم وقائع مادية عن أفراد ارتدوا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فلم يوقِّع عليهم حد الردة، وهذا يكفي من الدلائل. لكن في ذلك الحكم المستبد، وُجد من ينبش في التراث الضعيف من الأحاديث ليخرج بحديث رواه عكرمة مولى عبد الله بن عباس وهو "من بدل دينه فاقتلوه"، كما أن هناك حديثًا يذكر في بدايته "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... إلى آخر الحديث، وهذه الأحاديث وغيرها ليست ثابتة بالضرورة، وحتى الحديث الأول رفض الإمام مسلم إدراجه في صحيحه لأنه لا يعترف بالنقل عن عكرمة حيث رفض كل أحاديثه، وإذا كان الإمام مسلم يرفض هذا الحديث، فهل علينا غبار إذا رفضناه نحن أيضًا؟ صحيح أن البخاري قاله، لكن البخاري ليس إلهًا ولا معصومًا ولا مقدسًا، إن الأحاديث التي نُقلت كلها لا يرقى أغلبها إلى النص القرآني الصريح ولا إلى الوقائع التاريخية الثابتة عن الرسول، إذن، هذه الأحاديث مماحكة، وكان ظهورها نتيجة لأسباب معينة تطلبها الوضع والنظام والضرورات.

وحول مسألة الفتاوى، في الحقيقة هي جزء من مجتمعنا، إنها ظاهرة، نحن مجتمع ضياع، وفي يوم من الأيام سوف يكتب عنا المؤرخون ويكتبون عن الحالة الفريدة التي نعيشها وسيتعجبون بالتأكيد كيف كنا نعيش أصلاً في ظل كل هذا؟ لقد أصبحت الفتاوى تجد مجالاً من العرض

والطلب، ولو ظهر للناس حاجة فإنه يظهر فورًا من يقدم لهم هذه الحاجة، ومفتو الفضائيات لو لم يكن لهم سوق، ولو لم يكن هناك من يطلبهم لما ظهروا، ولأنها ظاهرة غير حقيقية عارضة مثل الموضة، ولأنها ظاهرة فاقعة فإنها تطفو على سطح المجتمع، ونحن نؤمن بحرية الرأي، ولا نستطيع أن نقول ليس لأحد أن يفتي سوى الأزهر الشريف والذي لا أعرف لماذا سموه شريفًا، إن هذا منتهى الخطأ، لأن هذا معناه أن يصبح هناك وكلاء لله تعالى، أن تصبح هناك كنيسة في الإسلام الذي يعد من مفاخره عدم وجود مؤسسة كنسية تحكمه، وليس من سلطة أحد التحليل ولا التحريم، وإذا قال قائل إن ذلك سوف يخلق فوضى، أقول نعم ستكون هناك فوضى، إن للحرية ثمنًا، فكيف نريد الحرية دون دفع الثمن؟ وهل نرى اختلاف الآراء والبلبلة أفضل أم أن التسليم بالباطل أفضل؟ لا يستطيع أحد أن يمنع شخصًا من أن يقول رأيه، إنه لا يقول إنه "مفتي" ولا إنه عالم إسلامي، إنه يجهر برأيه، وأيًّا كان رأيه خطئًا أم صوابًا فهو مقتنع به. وأنا لا أصدر فتوى مطلقًا، بل إنني أضيق بمن يطلب الفتوى وبمن يصدر الفتوى، وأقول لمن يطلب الفتوى ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام لمن استفتاه: "استفتِ قلبك وإن أفتوك"، لماذا يطلب الناس الفتوى؟ إن الناس يعلمون عن أنفسهم أكثر مما يعلم عنهم أي شخص آخر، وكل واحد يعرف ذنبه وكيف ارتكبه فهو أدرى به من أي شخص آخر، ولا يمكن لأحد أن يستطيع نقل ذنبه إلى المفتي بدقة حدوثه وبمؤثرات شخصيته وموروثاته الشخصية وبسلوكه وبطبيعته إلى آخر كل هذه التفاصيل، إن قلب الإنسان هو دليله بطبيعة الحال. وفي جميع الأحوال، لا يجب أن نضيق بظاهرة التعدد، إن الباطل يأخذ دوره ثم يسطع الحق، فلا يجوز أن نجد ظاهرة الفتوى مرفوضة أو تهدد الإسلام، إنها ليست أكثر من انعكاس لحالة نفسية يمر بها المجتمع المصري.

وحول مسألة تدخين السجائر في رمضان، حدث أن نشرت مقالتين في جريدة المصري اليوم وتساءلت في الأولى: "هل أصاب الفقهاء عندما جعلوا التدخين مفطرًا في رمضان؟"، إن التحريم والتحليل في الإسلام مصدره القرآن أو الرسول بشكل ثابت وقطعي، هذان هما التحليل والتحريم الشرعيان، ولم يكن في عهد الرسول تدخين ولذلك لا يوجد نص عليه لا في القرآن ولا في السنة، فما هو موقف الإسلام من هذه المستجدات؟ لا سبيل إلا الاجتهاد، حيث يأتي أصحاب الآراء ويعلنون آراءهم في هذه الظاهرة الجديدة: هل هي حسنة أو سيئة؟ ولا أقول أبدًا إذا كانت حلالاً أو حرامًا، وإذا اجتمعوا على أن السجائر ضارة فإن هذا اجتهاد، من يقتنع به يلتزم به، ولكن إذا وُجد من لا يقتنع به، لا نستطيع أن نجبره على الاقتناع لأنه ليس قرآنًا يجب عليه اتباعه وليس سنة مؤكدة، والاجتهاد قابل للخطأ حتى لو اكتسب قوة فيه. إن التحريم والتحليل ليس مرجعه الفقهاء، وغرضي من ذلك ألا نعطي للفقهاء سلطة التحريم والتحليل والتحكم في الناس؛ وإلا فإننا بهذا الشكل نشجع على تكوين دولة "ملالي" وولاية فقيه، فما كان مني إلا أن قلت إن من يقتنع بأن التدخين غير مفطر

فليدخن ومن يقتنع أن التدخين مفطر فلا يدخن. وهناك أيضًا ناحية أخرى في هذا الموضوع، وهو أن هناك الكثيرون الذين أدمنوا السجائر، مما يجعل من الصعب عليهم للغاية الإقلاع عنها، وهؤلاء يصومون لكنهم يقضون اليوم بالكامل في نوم أو إذا كان عندهم عمل يقضون اليوم في كآبة وسلبية كاملة، كأنهم اشتروا صيامهم وباعوا العمل والإنتاج، وهذه صفقة خاسرة، ولا يكون أمام هؤلاء إلا تدخين سيجارتين أو ثلاث سرًّا أثناء صيامهم، وهذا نفاق طبعًا، إلا أنه سيكسر حدة طباعهم أثناء الصيام، ونكون بهذا الشكل كسبناهم كصائمين بدلاً من أن نفقدهم كمنتجين، وهذا ليس معناه التصريح لجميع الصائمين بالتدخين في رمضان، ولكنه كلام خاص بمن ابتُلوا بآفة التدخين ولا يستطيعون التحكم فيها، وفي النهاية، إن الإسلام دين يسر.

أما بالنسبة لموضوع الحجاب، فإنني مؤمن كل الإيمان أن الحجاب ليس فريضة، ولكنه تقليد قديم للغاية وُجد قبل الإسلام بألفي عام، ومن هنا ليس معقولاً أن يفرضه الإسلام، لقد كان موجودًا منذ عهد حامورابي، وكان موجودًا في الهند، وكان موجودًا في اليهودية التي يبلغ عمرها ثلاثة آلاف عام، وأشد الأديان تمسكًا بالحجاب هي اليهودية، لدرجة أنه توجد يهوديات يغطين شعرهن في المطبخ لأن هناك نصًّا في اليهودية يقول إن شعرهن يفتن الملائكة، كما أن المسيحية تقبلت هذا الزي للمرأة، وكان أرسطو هو الذي قنن دونية المرأة، وفي أثينا كانت المرأة تجلس فيما يشبه الحرملك، أي في مكان منعزل، فلا تساهم لا في النشاط العام ولا في العمل ولا في أي شيء، وعندما جاء الإسلام وكل هذه الثقافات موجودة، فإنه ليس من السهل اقتلاع العادات المتجذرة، لا يمكن للإنسان أن يطلب من الشيء أن يكون فيكون، لا يستطيع القيام بثورة في الأخلاق ولا في الأوضاع، وعندما أراد اقتلاع عادات قبيحة مثل شرب الخمر والربا وغيرها فإنه اضطر إلى اللجوء إلى التدريج حتى يحمل الناس شيئًا فشيئًا على التغيير، والمسألة ليست فريضة، ولكنه أولاً تقليد قديم له جذوره في مجتمع ذكوري لا يزال حتى الآن ذكوريًّا، ثانيًا لاشك أن الأديان لديها نزعة نحو الحشمة لأن كل الأديان تدعو إلى الاحتشام وتحارب الخلاعة والبهرجة وكل الصور التي تسيء إلى كرامة المرأة، ومن هنا، جاء هذا الزي كنقطة التقاء، أو كوسيلة لتحقيق ما أراده الإسلام ولكن ليس شرطًا للحشمة أن تتحقق بالحجاب ولا أن الحجاب هو شرط الحشمة، ولكن وجد الناس أنه أسهل الطرق، ونحن دائمًا ما نستسهل الوسائل، وقد يرى أحدهم أن أسهل وسيلة لإثبات كونه مسلمًا أن يطلق لحيته وهذا أمر سهل، أما أن يكون صادقًا أو أمينًا أو مضحيًا أو كريمًا أو معطاءً، فإن هذا هو الأصعب والأبعد. وهكذا الأمر أيضًا بالنسبة للمرأة، أي امرأة تريد أن تثبت أنها مسلمة تحيط رأسها بغطاء وكأنها نفذت كل ما طلبه الإسلام منها، ومع ذلك أقول إن الحجاب المقصود به كشف الوجه والكفين لا بأس به لأنه لا يطمس شخصية المرأة، كما أنه زي عملي لمن تريد، وحتى الرجال كانوا يبحثون

دومًا في فترة من الفترات على ما يغطون به رءوسهم بشكل دائم، ومن يوم ما تركنا الطربوش لم نجد له بديلاً حتى الآن! أما النقاب فإنه مرفوض، لأنه يطمس شخصية المرأة، ومثلما ذُكر في بعض أقوال ابن عباس أنه على المرأة أن تُظهر عينًا واحدة ويُستحسن أن تكون اليسرى! وطبعًا هذا منتهى التحجر في هذه المسألة.

وحول مسألة الحج، أقول إن الإسلام واضح وصريح للغاية في هذه المسألة، إن الحج مرة واحدة لمن استطاع إليه سبيلاً، وحتى إذا كانت هناك استطاعة مع وجود أولويات، فإنه من الممكن أن تكون هناك أولويات قبل الحج، أما الذين يذهبون إلى العمرة فإنني أكاد أُمسك بخناقهم، أكاد أقول لهم هاتوا أموال العمرة عندنا فقراء كثيرون يحتاجون إلى التعليم والعلاج وغير ذلك. وأنا شخصيًّا حججت مرة واحدة في عام ١٩٦١، وجاءتني عروض عندما كنت في السعودية في العام الماضي للقيام بأداء مناسك العمرة، فأعلنت أنني في السعودية لإلقاء محاضرة فقط وسأغادر فور الانتهاء منها. كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحج إلا مرة واحدة فقط في حياته.

وحول مسألة العقل والنقل، أقول إن هناك ناحية واحدة فقط يعجز العقل عن إدراكها والنقل يمكن أن يشير إليها وهي طبيعة الله تعالى وذاته، أما ما عدا هذه النقطة فالعقل سيد، ويجب أن يتفق معه كل ما جاء به الإسلام، واعتبر البعض أن العقل شرع في شخص كل واحد والشرع عقل بالنسبة للمجتمع، ولا توجد منافاة في حقيقة الحال بين الشرع والعقل، لكن توجد منافاة بين العقل وما وضعه الفقهاء، لا توجد منافاة بين العقل وما ذكره القرآن الكريم أو أقوال ثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وحتى موضوع أقوال الرسول فإن لنا منه موقفًا، وقد علق أحدهم ذاكرًا مسألة تنقية السُنَّة، وهذه مسألة ليست جديدة، وقد ذكرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال وكل المجددين الإسلاميين طالبوا بالتجديد الإسلامي، ولم يكن المقصود طبعًا التجديد في القرآن لأن هذا مستحيل، إن التجديد الحقيقي في السُّنة التي لم تُدوَّن إلا في عام ١٥٠ من الهجرة، بمعنى أنها ظلت مائة وخمسين عامًا تُتَناقَل شفاهًا، ويتناقل الكلام من شخص إلى آخر عبر مائة وخمسين عامًا حافلة بالفتن والانشقاقات والنـــزاعات التي أدت لاصطناع عشرات الألوف من الأحاديث، إن تنقية السُنة دعوة مطلوبة منذ زمان طويل، أما التراث بأكمله فإن تنقيته مسألة غير معقولة لأن تسعة أعشار التراث مرفوض، وحتى نصل إلى حقيقته فسوف نفني أعمارنا وجهودنا، ونحن لدينا عقول أيضًا نفكر بها مثلما فكَّر أسلافنا بل وأكثر من أسلافنا، لأن لدينا علمهم بالإضافة إلى علم ما كانوا يحلمون به جاء به العصر الحديث، إن التراث لا فائدة منه، وحقيقته مثل عرق ذهب صغير يسري في جبل، وحتى نهدم الجبل لنُخرج عرق الذهب فإننا سوف نضيع وقتًا ومالاً وجهدًا لا يماثلون جميعًا النتيجة، وأهم من ذلك هو إغفال إعمال عقولنا وهذه أكبر جريمة، إننا بهذه الطريقة لم نستخدم النعمة العظمى التي منحنا الله إياها وآثرنا أن نكون مقلدين كالقرود. إن قضية النقل والعقل محسومة:

كل ما لا يدخل في ذات الله تعالى وطبيعته يخضع للعقل تمامًا ولا يختلف مع الشرع بمعناه الحقيقي وإن اختلف تمامًا مع ما جاء به الفقهاء، ولكننا غير مُلزمين بأن نتبع ما جاء به الفقهاء، وأقول إنه لا يمكن وضع تفسير للقرآن، لكن من الممكن أن نتحدث عن إلهامات قرآنية أو عما فهمناه من هذه الآية أو تلك، لكن أن يتم تقطيع آيات القرآن ويتم معالجة كل آية على حدة فهذا خطأ، إن آيات القرآن لا يتم فهمها قطعًا، بل لابد من فهم سياق السورة التي احتوتها، والآية التي قبلها والتي تليها، ومن رأيي أن نترك التفسيرات وأن نقرأ القرآن الكريم ونحاول فهمه بأنفسنا، ما نفهمه فهو حسن وما لا نفهمه فإننا لسنا مكلفين بفهم كل حرف فيه، و لم يكن الصحابة أنفسهم يفهمون كل حرف فيه، إن عدد من حفظوا القرآن وعرفوه من الصحابة محدود جدًّا، وكان أغلب الصحابة يحفظون عشرات الآيات لا يجاوزونها حتى يعلموا ويعملوا بما فيها من العمل ومن السلوك التطبيقي، ليس شرطًا بأن نُلم بكل القرآن الكريم، إن القرآن الكريم أشبه بقطعة كبيرة من القماش نشتريها لنأخذ منها ما يكفينا لتفصيل ثوب، ومن قطعة القماش التي تم تفصيل الثوب بها نعرف طبيعة القماش ولونه إلى آخره، وهكذا القرآن، وفي سور قصيرة مثل سورة العصر وسورة الإخلاص يقدم أفكارًا وقيمًا تغني الإنسان وتكفيه، إن الله تعالى يعرف أنه لا يمكن لكل المسلمين أن يحفظوا القرآن كله ولا أن يلموا به كله؛ لذا فإنه يبسط معاني القرآن على كل الآيات، بحيث إن من يعرف سورة صغيرة أو عددًا محدودًا من الآيات يستطيع أن يعرف الأساسيات الإسلامية التي يجب اتباعها، أما من يرغب في فهم كل حرف من القرآن فإنه يكلف نفسه ما لم يكلف الله تعالى به أي مخلوق.

متحدث لم يذكر اسمه:

لقد ناقض الأستاذ جمال البنا نفسه من أول المحاضرة إلى آخرها، كما أن الله تعالى في كتابه العزيز يقول ﴿اسْألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتمْ لا تَعلَمون﴾، فهذا معناه أن هناك من يُطلق عليهم أهل الذكر، كذلك، يشكك الأستاذ جمال البنا في نقل الأحاديث النبوية، فماذا يقول عن القرآن الذي تم تدوينه أيضًا بواسطة بشر، هل هو يشكك أيضًا في القرآن الكريم؟ إن القرآن مثل السُّنَّة تمامًا، ويقول الله تعالى ﴿ومَا آتاكُمُ الرسولُ فَخُذوه وَما نَهَاكُمْ عَنْهُ فانْتَهوا﴾.

جمال البنا:

يا أخي، نحن لا نختلف معك مطلقًا، ولكن معظم الأحاديث أقاويل منقولة، إن ما ذكرته في حديثِك يعني أن نكون موجودين والرسول أيضًا موجود ونحن نسمعه وننفذ ما يقوله، ولكن هذا الكلام المنقول عن عدة أشخاص عبر سنوات طويلة كيف نتأكد أنه بالفعل قول الرسول الحقيقي؟

هذه ليست إلا أقاويل كُتبت بعد مائة وخمسين عامًا من صدورها، إن القرآن حتى يثبت أن هناك شخصًا له دَيْن على آخر أنزل أطول آية في القرآن الكريم وهي آية الدَّيْن التي يقع فيها وصف تفصيلي للدَّيْن وشروطه وشهوده ووقائعه والحقوق حوله، وكلها شروط تؤدي في النهاية إلى الاحتفاظ بالدين المؤجل، فإذا كان القرآن نفسه على هذه الدقة لحفظ حقوق الناس، فكيف نستخدم نحن نصوصًا مشكوكًا فيها لقطع الرقاب وتزويج النساء وغيرها من الأمور الهامة؛ وهي في النهاية نصوص منقولة عن فلان عن فلان عن فلان شفاهًا، إن المبدأ أنه لا أحد يرفض كلام الرسول ولكن هل هذا هو كلام الرسول؟ هذه هي النقطة الهامة، وما قيل أخيرًا حول إرضاع الكبير وبول الرسول وغيرها كلها أساسًا نابعة من أحاديث، كما أن هناك أحاديث تحوي موضوعات ألعن من هذه الموضوعات، فمن أين أتت كل هذه الأحاديث؟!

أردت أيضًا أن أشير إلى قضية الردة أيام أبي بكر الصديق التي أثارها سؤال في البداية، أولاً إن أبا بكر لم يقاتل المرتدين وحده، ولكنهم هم الذين بادءوه بالقتال، ثانيًا معظم هؤلاء المرتدين لم يكونوا مرتدين ردة عقيدة، إنهم كانوا يؤمنون بالله وبالرسول وكانوا يصلون ويصومون ولكنهم رفضوا دفع الزكاة، ورفضوا الدولة المركزية وخلافة أبي بكر، وهذا معناه أنهم ثاروا على النظام القائم وعلى الدولة، وكانوا كما قلت البادئين بالحرب لأن الرسول قبل وفاته كان قد أوصى بأن يذهب الجيش الوحيد الموجود في المدينة إلى الشام، وصمم أبو بكر على تنفيذ أمر الرسول بعد وفاته على الرغم من أن هذا معناه أن تُترك المدينة دون حماية، وكان من نتيجة ذلك أن استغل بعض الطامعين الأمر وحاولوا الهجوم على المدينة، إلا أن أبا بكر كان من الفطنة بحيث وضع على مداخل المدينة حرسًا قويًّا فرد المعتدين، وعندما عاد الجيش من الشام قرر أبو بكر محاربتهم، إذن، فالعملية سياسية واقتصادية، سلطة وأموال لكنها ليست عملية عقائدية.

متحدث لم يذكر اسمه:

المعلوم في الدين الإسلامي أنه دين توحيد ووحدانية، وحدانية الله والمناسك والعبادة، إن عدد المسلمين في العالم يبلغ مليارًا ومائتي مليون في العالم، ولو كان لكل منهم فكر، فكم دين سيصبح للدين؟ وكم سيكون عدد الأديان في الأسرة الواحدة إذا فكر كل فرد في الأسرة في الدين كما يريد؟ معنى ذلك أنه سيحدث انحلال في المجتمع، من الذي سيحاسب الناس؟ إن الله جعل أحكامًا دنيوية يحكم بها الناس بعضهم على بعض وأحكامًا أخروية يحكم بها الله على عباده، ولابد ألا يتم الخلط بين الاثنين وأن نقول إن الله سيحاسبنا على كل شيء، لابد أن يكون للمجتمع أسس للحساب والتفكير

والعبادة، وليس من المعقول أن يكون لكل منا قِبلة يختارها ولا شهر يختار الحج فيه ولا أن يصلي كل منا كما يريد، لابد أن نتوحد في العبادات والمعاملات وإلا تتعدد الأفكار وتتشتت.

جابر عصفور:

على الرغم من أنني لا أحب أن أتدخل، إلا أنني يجب أن أقول إن ما قيل الآن هو بالضبط ما يقوله أسامة بن لادن وما يقوله تنظيم القاعدة، والنتيجة هي الكوارث التي حدثت. من حق كل مسلم أن يجتهد في دينه وفي فهم هذا الدين، إن المحاسب على الصواب والخطأ هو الله وليس البشر.

جمال البنا:

هناك إشارة هامة فيما قيل، وهي القول بأن الإسلام دين التوحيد، ولنا كتاب عنوانه "التعددية في الإسلام"، نقول في بدايته: "ظن بعض الناس أنه لما كان الإسلام دين التوحيد، فإن هذا يقتضي أن يكون كل شيء في المجتمع موحدًا، وأن يكون هناك حزب واحد ورأي واحد..."، وأكدنا أن هذا منتهى الخطأ، لأن التوحيد لله تعالى فقط، وكون خصوصية التوحيد قاصرة على الله تعالى فإنها تستتبع التعددية فيما عداه، ولا يوجد من له هذه الصفة إلا الله تعالى، أما ما دونه فإن التعددية هي القاعدة، لقد أسأنا فهم التوحيد المقصور على الله تعالى ولكنه ليس للمجتمع ولا للدولة، وذلك لأنه لابد من وجود الاختلاف.

قدري حفني:

أود أن أبدي ملاحظة وهي أن الموجودين في هذه القاعة عبروا عن تيارات شرعية موجودة قائمة في المجتمع المصري، وأنه لا أحد يستطيع أن يشكك في نواياهم، وأن الأصدقاء الذين اختلفوا مع الأستاذ جمال البنا لا أحد يستطيع أن يشكك في حبهم للإسلام وحرصهم عليه. إن الخوف من تفرق الرأي خوف موضوعي وحقيقي، لكن أيضًا، وجهة النظر الأخرى التي تقول إن المبالغة في الخوف من أن تتفرق الآراء وأن نتشتت تدفع من لديه رأي أن يكتمه؛ وبالتالي تمتلئ صفوفنا بالمنافقين، هذه خلاصة تجربة الاتحاد السوفيتي الذي انهار بعد أن كان الجميع يهتفون بحياة الزعيم المقدس لديهم، انهار لأن صفوف الحزب الشيوعي امتلأت بالمنافقين الذين أدوا إلى هذا الانهيار. والولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم مما فيها من تناقضات ومن خلافات بين الكنائس البروتستانتية، وعلى الرغم من أنها قد تفنى غدًا، إلا أنها مازالت حتى الآن قادرة على البقاء. والإسلام

أعز علينا من أشياء كثيرة، ومن أن نغامر بأن نملأ صفوفه بالمنافقين خوفًا. أردت أن أقول هذه الكلمات تحية للأستاذ جمال البنا وتحية للمختلفين مع الأستاذ جمال البنا؛ لأن على هذا الطريق يتقدم الإسلام وتتقدم الحرية.

جابر عصفور:

في النهاية، نشكر الأستاذ جمال البنا على هذه المحاضرة الممتعة التي أثارت من الاختلاف ما يثري الذهن والفكر.